الفاء الفصيحة

دلالاتها واستعمالاتها وتاريخها وضوابطها

أ.م.د.عبد العزيز صافي الجيل*

تأريخ التقديم: ٢٠١٢/١٢/٢ تأريخ القبول: ٢٠١٣/١/٢

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدّين، وبعد:

فإن مصطلح "الفاء الفصيحة" قد ورد الكلام عليه في كتب التفسير ، وشروح الحديث، وكتب البلاغة، والنحو إلاّ أنّ ما ثبت مجزّأ منثورا هنا وهناك فيها لا يروي غلّة، ولا يشفي صدى؛ لأن الحديث عنه- بالإضافة إلى كونه متناثرا- قد جاء مقتضبا حينا، وغير محرّر حينا آخر.

وهذه الفاء لم أجد مَنْ سمّاها بهذا الاسم قبل جار الله الزّمخشريّ، على الرغم من بذل الجهد، وطول البحث في المراجع العربية والإسلاميّة المختلفة.

وخير من تحدّث عنها من النّحاة المتأخّرين أبوالبقاء الكفويّ الذي عرّفها، وكشف عن حقيقتها، ووضع ضوابطها، وفرّق بينها وبين الفاءات الأخرى .

وأمّا من المفسّرين فلم أرَ من تتبّع مواردها في كتاب الله تعالى كالإمام الآلوسي في تفسيره روح المعاني، ويليه في العناية بها أبو السّعود في تفسيره المسمّى "إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم".

ولمّا جاء الشّيخ محمّد الطاهر بن عاشور علاّمة هذا العصر، وشيخ جامع الزّيتونة الأعظم، صاحب"تحرير المعنى السّديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير

* المملكة العربية السعودية/ الرياض .

الكتاب المجيد" الذي اختصره باسم "التّحرير والتّنوير"وقال عنه: "فيه أحسن ما في التفاسير وفيه أحسن مما في التفاسير[١]" تتبّع موارد هذه الفاء في القرآن الكريم، فعرّفها، ورسم حدودها، وضبط شروطها، وأبان عن دقائق استعمالاتها، ومازها من غيرها، وعمد إلى ما ذكره الأقدمون فهذبّه، وحرّره، وزاد عليه.

وفي هذا العصر أيضا لقي مصطلح الفاء الفصيحة عناية جديدة جادّة من العلاّمة الأستاذ محمّد عبد الخالق عضيمة في موسوعته القيّمة "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" فحاول جمع ما تفرّق حول هذه الفاء من بطون الكتب، إلاّ أنّه لم يستوف الحديث عنها؛ لضخامة المشروع الذي حمله على عاتقه، وهو مشروع عظيم–بالمقاييس المختلفة– ينوء بحمله الجمع من العلماء.

وأشهد أن كتابه كان حصاد سنين من العمل الدؤوب، والبحث المضني، والتنقيب الواعي في كتب الأقدمين .

ثمّ جاء الدكتور شرف الدّين الرّاجحي فألّف كتابه" الفاءات في النّحو العربي والقرآن الكريم "ومنهجه الذي اتّبعه يقتضي أن يستوفي الحديث عن هذه الفاء الفصيحة، وأن يعطيها ما تستحقّ من الدراسة، لكنّه لم يخصّها حتّى بعنوان ، وجاء حديثه عنها عرضا، في أثناء كلامه عن قضيّة حذف الفاء في التّنزيل العزيز وفي كلام العرب؛ فقال:"أمّا حذف جواب الشّرط أو تقديره، ووجود الفاء ففيه تفصيل[٢]"، ثمّ كرّر ما قاله الشيخ عضيمة تقريباً، واكتفى بسرد بعض الآيات التي وردت فيها الفاء الفصيحة .

---

(١) التحرير والتنوير– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي – تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ هـ: ٨/١ .

(٢) الفاءات في النحو العربي والقرآن الكريم– د.شرف الدين علي الراجحي – الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م : ١٢٠ .

وهذا الأمر دعاني للكتابة في هذا الموضوع الدقيق، لاستيفاء الكلام على هذه الفاء، والبحث في حقيقتها، وشروطها، وضوابطها، متتبّعا مواردها، وأقوال العلماء فيها(١).

وزادني رغبة في استجلاء حقيقتها، والوقوف على أهمّ ما كتب عنها أمور منها:

١- أنّ مصطلح الفاء الفصيحة لم يرد له ذكر ألبتّة في كتب معاني الحروف؛ كحروف المعاني والصّفات للزّجّاجي، ومعاني الحروف للرمّاني، والأزهية في علم الحروف للهروي، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، والجنى الدّاني في حروف المعاني للمرادي، ومغني اللبيب لابن هشام الأنصاري.

٢- الخلط بينها وبين الفاءات الأخرى، كما سيتّضح لاحقا، فهي تطلق عند بعضهم على الفاء العاطفة المفيدة لمعنى السّببية حينا، ولمعنى الترتيب حينا آخر، وقد تطلق على الفاء الواقعة في جواب الشرط، وربّما سوّى بعضهم بينها وبين الفاء التفريعيّة، فلم ير بينهما فرقا، وهناك من أطلقها على الفاء الزّائدة؛ لهذه الأسباب وغيرها أعددت هذا البحث لعلّه يسهم في تجلية حقيقة الفاء الفصيحة، خدمة لهذه اللغة الشّريفة.

تعريف الفاء الفصيحة:

الفاء حرف من حروف المعاني. واعتماد التّأنيث في "فصيحة" باعتبار الحرف كلمة.

وهي "فصيحة" لأنّها تفصح وتكشف عمّا قبلها وتدلّ عليه، أو لأنّها تدلّ على فصاحة المتكلّم بها، فوصفت بالفصاحة على الإسناد المجازي(٢)، إذ يسند الفعل أو

---

(١) نص هو نفسه على ذلك فقال:"واستندت في دراستي على الدراسة القيمة التي قام بها الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في موسوعته دراسات لأسلوب القرآن" الفاءات في النحو العربي والقرآن الكريم، المقدمة(ج)

(٢) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار – للسيوطي: ٢/٢٤٥

ما في معناه إلى سببه...ولأنّها سبب في فصاحة صاحبها فقد نسب إليها وصف الفصاحة الذي هو بالأصل وصف لصاحبها، من باب المجاز العقلي(١).

ومعنى الفصاحة البيان، يقال: فَصُحَ الرجلُ فَصاحة فهو فَصِيح من قوم فُصَحاء وفِصاحٍ وفُصُحٍ.. وامرأة فَصِيحةٌ من نِسوة فِصاحٍ وفَصائحَ(٢).

وفصيحة فعيلة بمعنى فاعلة كشهيدة بمعنى شاهدة، وحليلة بمعنى حالّة، أو فصيحة بمعنى مُفْصحة كبصيرة بمعنى مُبْصرة، وشعيرة بمعنى مُشْعرة

ذكر العلماء تعريفات وأوصافا نحويّة لهذه الفاء الفصيحة، أبرزها هذه الثلاثة:

قال الزّمخشريّ:" وحقيقتها أنّها جواب شرط يدلّ عليه الكلام(٣)" أي أنّ هذه الفاء تكون في جواب شرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، وظاهر كلامه أنّها لا تسمّى فصيحة إلاّ إذا وقعت في جواب شرط محذوف مع أداته .

١- وقال الكفويّ:"هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببا للمعطوف من غير تقدير حرف الشّرط(٤)".

فهو يرى أنّ المحذوف قبلها ينبغي أن يكون معطوفا عليه، وليس شرطا، وأن يكون سببا للمذكور بعدها؛ لذلك قال:" ولا تسمى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه(٥)"وقال أيضا:" وإن كان المعطوف شرطا (أي جواب شرط مقترن بالفاء) لا

---

(١) ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – بهاء الدين السبكي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي – بيروت، لبنان : المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ، :١٩٨، و١٩٩، وحاشية الشيخ يس على شرح التّصريح (مطبوع مع شرح التصريح) – يس الحمصي – بيروت–لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م. – الطبعة الأولى: ١٥٣/٢، ١٥٤

(٢) لسان العرب مادة (فصح)

(٣) الكشاف = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل– أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. – بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ. – الطبعة الثالثة: ٤٨٧/٣

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري – بيروت : مؤسسة الرسالة :٦٧٦

(٥) نفسه

تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى جزائية سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف[١]" ثمّ قال:"وقال بعضهم: هي داخلة على جملة مسبّبة عن جملة غير مذكورة"[٢]".

٢- وقال الشّيخ خالد الأزهريّ:"وتسمّى الفاء العاطفة على مقدّر فصيحة[٣]"، هكذا من غير تحديد، سواء أكان المحذوف المقدّر معطوفاً عليه أم فعل الشرط، وأداته والشاهد المشهور عند العلماء من القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عشرة عينا)[٤] فقد قالوا:إنّ الفاء في مثل قوله "فانفجرت"تسمّى فصيحة؛ والتّقدير عندهم، إمّا:فضربه بها فانفجرت، وإمّا: فإن ضربت بها فقد انفجرت[٥]. قال ابن عاشور:" وأما تقدير الشرط هنا أي فإن ضربت فقد انفجرت إلخ فغير بيّن، ومن العجب ذكْره في الكشّاف[٦]".قلت:لأنّه يلزم على هذا التّقدير أن يكون الجواب ماضيا لفظا ومعنى، وجواب الشّرط هنا لا يجوز أن يكون ماضي المعنى؛ لأنّ الانفجار مترتّب على الضّرب المستقبل بأداة الشّرط[٧]، اللهمّ إلاّ أن يكون ذلك على معنى:فقد حكمنا بأنّها انفجرت.

---

(١) نفسه

(٢) نفسه

(٣) شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو -خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، ويعرف بالوقاد. – بيروت–لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م. – الطبعة الأولى: ١٨٦/٢

(٤) سورة البقرة، الآية ٦٠

(٥) ينظر المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم- سعد الدين التفتازاني، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧. – الطبعة الثانية، :٤٨٨-٤٨٩

(٦) التحرير والتنوير: ٥١٩/١

(٧) ينظر البحر المحيط في التفسير – أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل. – بيروت : دار الفكر، ١٤٢٠ هـ، :٣٦٩/١

وأشهر أمثلة الفاء الفصيحة من كلام العرب، قول الشّاعر[١]:

قالوا: خُراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا ثُمَّ القُفُولُ فقد جئنا خُراسانا[٢]

وسيأتي المزيد من الحديث عن هذا الشّاهد لاحقا.

عرض هذه التعريفات ومناقشتها:

إنّ حذف الشّرط مع الأداة كما أشار إلى ذلك الزّمخشريّ في التّعريف الأول من أحاسن الحذوف عنده[٣] والفاء التي تكون في جواب الشرط المقدّر مع الأداة لا تقع إلاّ في كلام بليغ؛ حسب رأيه[٤].

وقد تحدّث عن حقيقة هذه الفاء– بعد أن استشهد بقوله تعالى: {لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُون[٥]}، وقول الشّاعر:

قالوا: خُراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا ثمّ القُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا–

فقال:"فإن قلت: ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ قلت: هي التي في قوله:

فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا ... وحقيقتها:أنها جواب شرط يدل عليه الكلام، كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث، أي فقد تبين بطلان قولكم[٦]".

وهذا لا يعني أنّ الزّمخشريّ ينكر تقدير المعطوف عليه، ولا يقول إلاّ بتقدير الشّرط، بدليل قوله في الآية السّابقة: "{ فانفجرت }، الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب

---

(١) هو العبّاس بنِ الأحنف

(٢) ينظر دلائل الإعجاز في علم المعاني – عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر – لقاهرة : مطبعة المدني، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م – الطبعة الثالثة :٩٠

(٣) الكشاف:٦٣/٢

(٤) نفسه: ٢٨٤/١

(٥) سورة الروم، الآية٥٦

(٦) الكشاف:٤٨٧/٣

فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت[١]" فجوّز التّقديرين، وإنّما يبدو أنّ الفاء لا تسمّى عنده فصيحة إلاّ إذا كانت في جواب شرط محذوف مع الأداة؛ قال العلاّمة التفتازاني: "وظاهر كلام الكشّاف أن تسميتها فصيحة إنّما هي على التّقدير الثّاني، وهو أن يكون المحذوف شرطا[٢]" لذلك قال الزّمخشريّ عنها"هي التي في قوله:

فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا ... " ولم يقدّر قبل هذه الفاء إلاّ شرطا كما رأينا، ثمّ قال: "وحقيقتها: أنها جواب شرط يدل عليه الكلام".

وقد وافق ابن كمال باشا الزّمخشريّ على رأيه هذا؛ فقال:"إذا كان ما قبل الفاء شرطا مقدّرا لما بعدها المذكور تسمّى فاء فصيحة"[٣].

لكنّ أبا السعود العمادي رأى أنّ تقدير المحذوف شرطا غيرُ حقيقٍ بجلالة شأن النظمِ الكريم[٤]

وهناك من قال: "إنها تدل على محذوف قبلها فإن كان شرطا(أي فعل الشّرط وأداته) فالفاء فاء الجواب، وإن كان مفردا فالفاء عاطفة ويشملها اسم فاء الفصيحة. وهذه طريقة الجمهور على الوجهين فتسميتها بالفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف[٥]"

لكنّ أباحيّان[٦] استنكر ما ذهب إليه الزّمخشريّ ومن نحا نحوه؛ لأن حذف الشرط مع الأداة غير جائز في كلام العرب، حسب رأيه، ؛ فقال:" وأما حذف فعل الشرط وأداة الشرط معاً، وإبقاء الجواب، فلا يجوز إذ لم يثبت ذلك من كلام

---

(١) الكشّاف:١٤٤/١

(٢) المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم:٤٨٩

(٣) أسرار النحو– ابن كمال باشا، تحقيق: د. أحمد حسن حامد – عمّان: دارالفكر:٢٨٨، ٢٨٩

(٤) ينظر تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم– أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى – بيروت : دار إحياء التراث العربي: ١٠٦/١

(٥) التحرير والتنوير: ٥١٩/١

(٦) أبو حيّان معروف بتحامله على الزّمخشريّ، ربّما بسبب اعتزاله

العرب[١]".وقال في موضع آخر:" فما ذهب إليه فاسد في التركيب العربي، وفاسد من حيث المعنى، فوجب طرحه، وأين هذا من قوله: وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ؟[٢]"

ولم يوافق ابن هشام أبا حيّان على رأيه هذا، بل ذهب إلى أنّ حذف الشّرط مع الأداة مطّرد بعد الطّلب، كما جاء بدونه أيضا[٣] بل قد تحذف الأداة مع فعل الشّرط وجزائه، كما في قوله تعالى: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون)[٤].

قال ابن عاشور: "وقوله (فلن يخلف الله عهده) الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه .وما بعد الفاء هو علة الجزاء، والتقدير فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم لأن الله لا يخلف عهده[٥]".

وما قاله الكفويّ في التعريف الثاني هو ظاهر ما ذهب إليه السكّاكي من قبلُ؛ إذ لم يقدّر شرطا قبل الفاء، وإنّما قدّر معطوفا عليه؛ فالفاء الفصيحة عنده–كما يبدو– هي الفاء العاطفة على معطوف عليه محذوف تفصح هي عنه وتفيده، فقد قال: "وانظر إلى الفاء التي تسمّى فاء فصيحة في قوله تعالى: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم) كيف أفادت:فامتثلتم فتاب عليكم، وفي قوله: (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت)مفيدة:فضرب فانفجرت"[٦] .

---

(١) البحر المحيط:٣٣٩/١

(٢) نفسه: ٣٦٩/١

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – عبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك – محمد علي حمد الله. – دمشق : دار الفكر، ١٩٨٥ م. – الطبعة السادسة: ٨٤٧

(٤) البقرة، الآية ٨٠

(٥) التحرير والتنوير: ٥٨٠/١

(٦) مفتاح العلوم–يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب– بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م. –الطبعة الثانية: ٢٧٨

قلت: سبقه إلى هذا التّقدير أبو زكريّا الفرّاء؛ فقال: "معناه – والله أعلم – فضَرَب فانفجرت، فعُرِف بقوله: "فَانفَجَرَتْ" أنه قد ضَرَب، فاكتفى بالجواب؛ لأنه قد أدّى عن المعنى، فكذلك قوله: {أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ} ومثله (في الكلام) أن تقول: أنا الذي أمرتك بالتجارة فاكتسبت الأموال، فالمعنى فتَجَرت فاكتسبت[١]".

وهذه الآية الأخيرة التي استشهد بها السّكّاكيّ أصبحت كالعَلَم على الفاء الفصيحة من بين آيات الذكر الحكيم الكثيرة التي وردت فيها هذه الفاء؛ فإنّ أغلب الذين وقفوا عند الفاء الفصيحة من النّحاة والبلاغيّين والمفسّرين ذكروا هذه الآية الكريمة في شواهدهم، وتقدير السكّاكي هذا هو تقدير الفرّاء[٢] من قبلُ كما قلت، وهو تقديرابن جنّي[٣]، وابن عصفور،[٤] وابن أبي الربيع[٥]، وابن الشّجريّ[٦]، وأبي حيّان الأندلسيّ[٧]، والسمين الحلبي[٨]، والقرطبيّ[٩]، وأبي السّعود[١٠]، وغيرهم.

---

(١) معاني القرآن– أبو زكريا يحيى بن زياد بن منظور الديلمي الفراء،تحقيق: أحمد يوسف النجاتي – محمد علي النجار–عبد الفتاح الشلبي– مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة–الطبعة الأولى: ٤٠/١

(٢) معاني القرآن:٤٠/١

(٣)الخصائص/أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي– القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب– الطبعة الرابعة: ٢٨٩/١ و٣٦١/٢، ٤٦٠ و١٧٤/٣

(٤) المقرّب/ابن عصفور،تحقيق: أحمد الجواري،وعبد الله الجبوري– بغداد:مطبعة العاني: ٢٥٨/١

(٥) البسيط في شرح جمل الزجاجي/ابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، تحقيق: د. عيّاد بن عيد الثبيتي. – بيروت : دار الغرب الإسلامي،١٤٠٧ هـ– ١٩٨٦ م. – الطبعة الأولى: ٥٦٧/١

(٦) أمالي ابن الشّجريّ= الشجرية/أبو السعادات بن الشجري–بيروت:دار المعرفة للطباعة: ٣٣٠/١

(٧) البحر المحيط:٢٢٧/١

(٨) الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون / أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط. – دمشق : دار القلم: ٣٨٥/١

(٩) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي / أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي. – القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م. – الطبعة الثانية: ٤١٩/١

(١٠) إرشاد العقل السليم: ١٠٦/١

فالسكّاكيّ والذين سبقوه، والذين نحوا نحوه، قد قدّروا قبل هذه الفاء (سواء أسمّوها فصيحة، أم عاطفة) جملة محذوفة، مضمونها سبب لمضمون هذه المذكورة[١].

وقد عدّ العلاّمة ابن عاشور طريقة السّكّاكي هذه هي المثلى؛ فقال -بعد أن أبان عن معنى الفاء الفصيحة، وكشف اللثام عن حقيقتها-: "ومعنى فاء الفصيحة أنها الفاء العاطفة، إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفا على المذكور قبلها، فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون ما بعد الفاء معطوفا عليه وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثلى[٢] ".

قلت: لعلّه سمّى هذه الطريقة بطريقة السّكّاكيّ، وإن لم يكن أوّل من قدّر المحذوف معطوفا عليه؛ لأنّ الذين سبقوه إلى هذا التّقدير من المتقدّمين كالفرّاء وغيره لم يسمّوا هذه الفاء بالفصيحة، كما سمّاها السّكّاكي.

كما عرّف الزّركشي هذه الفاء بقوله:"هي الفاء العاطفة على الجواب المحذوف[٣]"وهو يعني جواب فعل الأمر، أي جواب الطلب، لا جواب الشّرط كما قد يتبادر إلى الذّهن، فقد استشهد بقوله تعالى(اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم) وقال: تقديره:"فذهبا إليهم فكذّبوهما فدمّرناهم[٤]"، وزاد أبو البقاء الكفوي في إيضاح حقيقتها كما مرّ أن يكون المعطوف عليه المحذوف سببا للمعطوف، وأن لا يكون شرطاً.

---

(١) ينظر شرح مواهب الفتّاح لابن يعقوب المغربي: ٦٩٢/١

(٢) التحرير والتنوير: ٥١٨/١-٥١٩

(٣) البرهان في علوم القرآن / أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-بيروت- لبنان: دار المعرفة،١٣٧٦هـ-١٩٥٧م- الطبعة الأولى: ١٨٢/٣

(٤) نفسه

وقريب منه قول الإمام الطّيبيّ عن هذه الفاء:" التي تفصح عن محذوف غير شرط، هو سبب لما بعده"[١] .

ولم يذكر ابن حجر العسقلاني(٨٥٢هـ) في تعريفها قيد الشرط هذا الذي تمّت مناقشته في التعريف الأوّل؛ فقال:" هي الدالة على محذوف قبلها هو سبب لما بعدها[٢] "

وأمّا ما ذهب إليه الشيخ خالد الأزهري في التعريف الثّالث بقوله: "وتسمّى الفاء العاطفة على مقدّر فصيحة[٣]" فقد أضاف له ابن عاشور كلمة (مطلقا)؛ فقال: "لك أن تقول إن فاء الفصيحة ما أفصحت عن مقدر مطلقا[٤]".

وهذا يعني أنّها تسمّى فصيحة على التقديرين من غير تحديد، سواء أكان المقدّر شرّطا، أم معطوفا عليه، وهو ما قاله ابن يعقوب المغربي بعد أن عرض تقدير الشرط، وتقدير المعطوف عليه: "وقيل تسمّى بذلك (أي فاء فصيحة) على التقديرين، أعني تقدير الشرط، وتقدير المعطوف عليه[٥]"وهذا ماعليه أكثر العلماء؛ قال الكفوي: "والقول الأكثرعلى التقديرين[٦]".

وذهب الآلوسي إلى أنّ المقدّر قبلها قد يكون أمرا، أو نهيا، أو شرطا، أو معطوفا عليه، أو قولا؛ فقال: "وتختلف عبارة المقدر قبلها، فتارة يكون أمراً أو نهياً، وتارة يكون شرطاً كما في قوله تعالى:(فهذا يوم البعث)[٧]، وقول الشاعر:

فقد جئنا خراسانا ...

---

(١) التبيان في علوم المعاني والبديع والبيان / الطيبي، تحقيق: هادي عطية الهلالي. – بيروت : عالم الكتب، ١٩٨١–١٤٠٧هـ. – الطبعة الأولى: ١٥٠

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري/ بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – بيروت : دار المعرفة: ١٣٧٩، ٢١٦/٨

(٣) شرح التصريح على التوضيح: ١٨٦/٢

(٤) التحرير والتنوير: ٥٥٦/١

(٥) شرح مواهب الفتّاح:٦٩٣/١

(٦) الكليات: ٦٧٦

(٧) سورة الروم، الآية ٥٦

وتارة معطوفاً عليه، كما في قوله تعالى: { فانفجرت [١]}، وقد يصار إلى تقدير القول، كما في الفرقان في قوله تعالى: { فقد كذبوكم [٢]}[٣]"

وهذا التعريف الأخير هو الذي أرجّحه؛ لأنّ كلّ شاهد فيه الفاء الفصيحة ينبغي أن يقدّر له المحذوف الذي يتناسب مع سياقه، وحتّى تقدير فعل الشّرط وأداته الذي أنكره أبوحيّان قد رضي به تقديرا في قوله تعالى: {اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم [٤]} حيث قال: "(فإن لكم ما سألتم) هذه الجملة جواب للأمر، كما يجاب بالفعل المجزوم، ويجري فيه الخلاف الجاري فيه: هل ضُمّن اهبطوا مصراً معنى: إن تهبطوا أو أضمر الشرط وفعله بعد فعل الأمر؛ كأنه قال: إن تهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم[٥]"

كما قدّر حذف الشّرط والأداة في قوله تعالى: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[٦]}، فقال:التقدير: إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله؟[٧].

فعلّق عليه الزّركشيّ بقوله: "وهو حسن إلاّ أنّه قد كان خالف الزّمخشريّ، وأنكر قوله بحذف الشّرط في: {فتاب عليكم} وفي {فانفجرت} وقال: إنّ الشّرط لا يحذف في غير الأجوبة، والآن قد رجع إلى موافقته[٨] ".

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦٠

(٢) سورة الفرقان، الآية١٩

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني = تفسير الألوسي / شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. – بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ– الطبعة الأولى: ١٠٤/٦

(٤) سورة البقرة، الآية٦١

(٥) البحر المحيط: ١٣٥/١

(٦) سورة البقرة، الآية٩١

(٧) البحر المحيط: ٣٠٧/١

(٨) البرهان في علوم القرآن:١٨١/٣

سبب تسميتها بالفصيحة:

اتّفق العلماء على أنّ الأصل في سبب تسمية هذه الفاء بالفصيحة يعود إلى إفصاحها عن محذوف قبلها، وإن اختلفوا في تقديره بعد ذلك، كما رأينا سابقا.

وقال الإمام الطيبيّ: "سمّيت هذه الفاء فصيحة، لإفصاحها عن محذوف غير شرط، هو سبب لما بعده، أو لأنّها لا تكاد توجد إلاّ في كلام فصيح شرطا كان أولا[١]".

وهو ما أوجزه بهاء الدين السبكي(٧٦٣هـ) في العبارة التالية: "سميت فصيحة لإفصاحها عما قبلها. وقيل: لأنها تدل على فصاحة المتكلم بها[٢]" وهي العبارة نفسها التي ذكرها ابن حجر العسقلاني[٣].

وقال الدسوقي:"سمّيت فصيحة لإفصاحها عن الجملة المقدّرة قبلها ودلالتها عليها....أو لأنّها لا تدلّ على المحذوف قبلها إلاّ عند الفصيح، أو لأنّها لا ترد إلاّ من الفصيح لعدم معرفة غيره بمواردها[٤]".

وحاول الشّريف الجرجاني أن يستقصي هذه الأسباب جميعها، ويصوغها في هذه العبارة: "سمّيت فصيحة؛ لإفصاحها عن الشّرط والسبب، أو لفصاحة الكلام الذي دخلت هي فيه، أو لظهور المعنى بسبب دخولها، أو وصف لها بوصف صاحبها، أو لكونها مفيدة معنى بديعا، أو واقعة موقعا حسنا[٥].

مصطلح الفاء الفصيحة:

استخدم الزّمخشريّ[٦] صاحب المصطلح مرّة "الفاء الفصيحة"، وأخرى"فاء فصيحة" وهو في المرّتين يصف الفاء بالفصاحة، فالفاء موصوفة، والفصيحة

---

(١) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان:١٥٠

(٢) شروح التلخيص:١٩٨

(٣) ينظر فتح الباري:٨/٢١٦

(٤) شروح التلخيص: ١٩٩

(٥)حواشي شرح السعد على تصريف العزي:١٥٩-١٦٠ نقلا عن دراسات لأسلوب القرآن الكريم / محمد عبد الخالق عضيمة. – مصر : مطبعة السعادة، ١٣٩٢ هـ ق ١ ج ٢: ٢٤٩

(٦) الكشاف: ١/٢٨٤و٣/٥٦٨

صفة، ولا فرق بين الاستخدامين إلا في التعريف والتنكير، فالفاء عنده تفصح عن المحذوف، سواء أكان هذا المحذوف معطوفا عليه أم شرطا، كما قدّر هو في قوله تعالى { فانفجرت }حيث قال: "الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت[١] ".

وهناك من العلماء من استخدم "الفاء الفصيحة" فقط كالسكّاكي[٢]، والزّركشي[٣]، وأبي السعود[٤]، والآلوسيّ[٥] .

واستخدم ابن كمال باشا "فاء الفصيحة" على الإضافة، والإضافة هنا معنوية محضة؛ لأنّ المضاف وهو "فاء" ليس وصفا، والمضاف إليه "الفصيحة" ليس معمولا لذلك الوصف، والإضافة إذا كانت محضة تكون خالصة من شائبة الانفصال، وإذا كانت معنويّة تفيد تعريف المضاف إن كان المضاف إليه معرفة، كما في "فاء الفصيحة"، وتخصيصه إن كان نكرة كما في "غلامُ امرأةٍ" وبالتّالي فإنّ "فاء"النكرة قد اكتسبت التعريف من "الفصيحة" المعرفة، فغدت كأنّها محلّاة بـ "الـ" فاستوت "فاء الفصيحة" في التعريف مع "الفاء الفصيحة".

وأمّا ابن عاشور فقد استخدم جميع المصطلحات السّابقة، وأضاف إليها مصطلحا آخر هو"الفاء للفصيحة"[٦]، وهذا يعني أنّ "الفصيحة" معنى من معاني هذه الفاء، فكما يقال الفاء للتعقيب، أو للتّرتيب، أو للسّببيّة، يقال أيضا الفاء للفصيحة؛ ولذلك قال الآلوسي عن الفاء في قوله تعالى: (فأهلكناهم بذنوبهم): "الفاء للتعقيب، وقيل: فصيحة[٧]".

---

(١) الكشاف: ٢٨٤/١

(٢) المفتاح: ١٣٤

(٣) البرهان: ١٨٣/٣

(٤) تفسير أبي السعود: ٢٨٧/٢

(٥) روح المعاني: ٢٧٠/١، ٣٠٤/١-٣٠٥، ١٠٤/٦، ٩٣/٧ إلخ

(٦) التحرير والتنوير: ٥٥١/١، ١/ ٥٥٦، ٤٠/٥، ١٧٧/٥، ٢٣٧/٥، ١٠٨/٦

(٧) روح المعاني: ٩٥/٧

ومن هنا يتبيّن أنّ الفاء الفصيحة ليست قسما من أقسام الفاء، وإنّما هي معنى من معانيها.

تاريخ الفاء الفصيحة:

لعلّ أول من وضع أصبعه على هذه الفاء في الشّعر هو الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في قول العبّاس بنِ الأحنف الذي غدا فيما بعد الشاهد العلم على الفاء الفصيحة، كما قال[١] الإمام الآلوسيّ، وهو:

قَالُوا: خُراسانُ أقصى ما يُرادُ بِنا ... ثُمّ القُفولُ فقد جِئنا خُراسانا

حيث قال الجرجانيّ:" انظرُ إِلى موضعِ الفاء" فيه[٢]، لكنّه لم يسمّها، ولم يذكر ما الذي أفصحت عنه، ولكن حسبه هذه الإشارة إلى الفاء الفصيحة في هذا الشّاهد الذي ظلّ يتيما في بابه لا يُستشهد عليها بغيره من الشّعر على مدى قرون.

فلمّا جاء العلاّمة الزّمخشري(٥٣٧هـ) كأنّي به قد رأى في إشارة الإمام عبد القاهر إليها مقنعا للمتأمّل ومثلا للمتمثّل، فنظر إلى موضعها بعمق، وتأمّل الشّاهد ببصيرة ثاقبة، وعين فاحصة، فسمّى هذه الفاء بالفصيحة، بعد أن أدرك معناها، وعرف حقيقتها، وقد صرّح الزّمخشريّ بهذه الفاء الفصيحة في موضعين اثنين من تفسيره:

- الموضع الأوّل: عند تفسير قوله تعالى: { فَكَرِهْتُمُوهُ }من قوله { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه }فقال:" معناه: فقد كرهتموه ...وفيه معنى الشرط، أي: إن صحّ هذا فكرهتموه، وهي الفاء الفصيحة[٣]".
- والموضع الثّاني:عند تفسير قوله تعالى { فانفجرت }من قوله {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا...، } فقال:"الفاء

(١) روح المعاني: ٣٠٥٧٥/١

(٢) ينظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٩٠

(٣) الكشاف: ٥٦٨/٣

متعلقة بمحذوف، أي فضرب فانفجرت أو فإن ضربت فقد انفجرت.. وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ[١]" .

ثمّ جاء الإمام السّكّاكي (٦٢٦هـ) وهو من أئمّة النّحو والبلاغة، فاستشهد على هذه الفاء بآيتين من القرآن الكريم، في كتابه مفتاح العلوم[٢] الذي ضمّ النحو والصّرف والبلاغة والعروض ومضى خلفه الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) في تلخيص المفتاح[٣]، والعلاّمة شرف الدّين الطّيبيّ (٧٤٣هـ)في كتابه التّبيان في علم المعاني والبديع والبيان[٤]، ثمّ بهاء الدّين السّبكي في عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح[٥]، وسعد الدّين التّفتازاني في المطوّل[٦]، وابن يعقوب المغربيّ(١١٢٨هـ) في مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح[٧]، والإمام الدّسوقي في حاشيته على شرح السّعد[٨]، إلى غير هؤلاء من علماء البلاغة.

ولم يفت علماء التّفسير وعلوم القرآن التّنويه بهذه الفاء الفصيحة بعد أن فتح الإمام الزّمخشريّ أمامهم الطّريق لاحبا، فتحدّث عنها الزّركشيّ في كتابه البرهان في علوم القرآن[٩]، والبقاعي في نظم الدرر[١٠]، والنّيسابوريّ في تفسيره[١١]،

---

(١) الكشاف: ٢٨٤/١

(٢) ينظر مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي: ٢٧٨

(٣) ينظر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني: ١٢٣

(٤) ينظر التّبيان في علم المعاني والبديع والبيان لشرف الدّين الطّيبي: ١٥٠

(٥) ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدّين السّبكي: ٥٩٥/١

(٦) ينظر المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلاّمة سعدالدّين التّفتازاني: ٤٨٨

(٧) ينظر مثلا: ٦٩٢/١-٦٩٣

(٨) شروح التلخيص: ١٩٩

(٩) ينظر البرهان في علوم القرآن للإمام بدرالدّين الزّركشيّ: ١٨٢/٣

(٨٩) ينظر٨٧: ١٤٤/١٢

(١١) ينظر مثلا: ٥٠٨/٤ و٢٨٢/٨، ٤٤٣

وأبوالسّعود في إرشاد العقل السّليم المعروف بتفسير أبي السّعود[١]، والآلوسي في روح المعاني، وسيد طنطاوي في الوسيط، وغيرهم كثير.

ولم أر من المفسّرين القدامى والمحدثين من تتبّع مواضع هذه الفاء في القرآن الكريم، وبيّن حقيقتها، ووضع ضوابطها كابن عاشور في تفسيره التّحرير والتّنوير.

وأمّا علماء النّحو المتقدّمون– بمن فيهم الذين ألّفوا في حروف المعاني– فلم أقف على من سمّاها بهذا الاسم، أو خصّها بحديث –على حدّ علمي–.

وأوّل من وجدته قد تحدّث عنها، وأكثر من ذكرها، هو صاحب المقاصد النّحويّة أبو محمد، بدر الدين العينيّ (ت: ٨٥٥هـ) في كتابه عمدة القاري، حيث ذكرها في أربعة وثلاثين موضعا.

والشيخ خالد الأزهريّ(ت ٩٠٥هـ) في كتابه التّصريح على التّوضيح، ولم أجده قد صرّح بها فيه إلاّ مرّة واحدة[٢] .

ثمّ جاء الشيخ يس الحمصي(ت١٠٦١هـ) فأضاف في حاشيته على ما قاله الأزهريّ شيئا ممَّا في التّلخيص للقزويني، والمطوّل للتّفتازاني[٣].

وأمّا عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣ هـ) فقد ذكرها في خزانة الأدب في موضعين اثنين[٤].

وخير من تحدّث عنها بعد ذلك هو أبو البقاء أيّوب الكفويّ (ت١٠٩٤ هـ) في كتابه الكلّيات، وهو معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة[٥].

---

(١) ينظر مثلا: ٨٩/١ و ١٤٨/٢ و ٢٨٧/٢

(٢) شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهري، تحقيق محمّد باسل عيون السّود:١٨٦/٢

(٣) حاشية الشيخ يس على شرح التّصريح على التوضيح١٥٣/٢ وينظر التلخيص٢١٨–٢١٩ والمطوّل:٤٨٩

(٤) ص: ٢١٩، ٢٩٠

(٥) الكليات :٦٧٦

كما ذكرها أبوالعرفان محمد بن علي الصبّان (ت١٢٠٦ هـ)في حاشيته على الأشموني أربع مرّات[١].

وبقي الأمر كذلك إلى أن ألّف في العصر الحديث الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة موسوعته "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" فذكر شيئا ممّا قاله الكفوي، وساق بعض الآيات التي وردت فيها الفاء الفصيحة، فلفت انتباه المهتمّين بالنّحو وقضاياه من المعاصرين، فجاءت مباحث من تحدّث عنها إمّا مقتضبة، وإمّا تحتاج إلى تحرير، كما في معجم النحو لعبدالغنيّ الدّقر[٢]، ومعجم المصطلحات النّحوية والصّرفية لمحمّد سمير نجيب اللبدي[٣]، والحاشية العصريّة على شرح شذور الذّهب للدكتور عبد الكريم الأسعد[٤]، وفي النّحو العربيّ للدكتور عبد الحميد مصطفى السيّد، والدكتورة لطيفة إبراهيم النّجّار[٥]، والفاءات في النّحو العربيّ والقرآن الكريم للدكتور شرف الدّين الرّاجحيّ[٦].

ولا يعنيني في هذا المقام الإحصاء الدّقيق لمن كتب عنها بقدر ما يعنيني تسليط الأضواء عليها، وعلى المدارس النّحوية والبلاغيّة والتّفسيريّة التي عُنيت بها عبر العصور.

---

(١) ينظر حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك / أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي. – بيروت–لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م. – الطبعة الأولى: ٣٠/١، ٧٧و٣٠٦/٢و ١٢١/٤

(٢) معجم النحو/عبد الغني الدقر. – بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ هـ. – الطبعة الثانية:٢٥٩

(٣) معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية / محمد سمير نجيب اللبدي – : مؤسسة الرسالة – دار الفرقان، ١٤٠٥ هـ – الطبعة الأولى: ١٧١، ١٧٢

(٤) الحاشية العصريّة على شرح شذور الذّهب / د. عبد الكريم الأسعد. – الرياض : دار الشواف، ١٤١٦ هـ: ٥٥٦/٢وما بعدها

(٥) في النّحو العربيّ:٢٢٨/٣

(٦) الفاءات في النّحو العربيّ والقرآن الكريم:١٢٠ وما بعدها

كتب المعاني والفاء الفصيحة:

قال المراديّ: "وأصول أقسام الفاء ثلاثة: عاطفة، وجوابيّة، وزائدة" ثمّ تحدّث عن كلّ قسم منها بالتفصيل. والعجيب الغريب أنّه لم يشر إلى هذه الفاء الفصيحة، لا من قريب، ولا من بعيد، كما أنّ غيره ممّن صنّفوا في حروف المعاني قد تجاهلوها أيضا، كما تجاهلتها كتب النّحو الأخرى التي ألّفت قبل الزّمخشريّ، وأمكنني الرّجوع إليها. فما سرّ ذلك يا ترى؟

لا أستطيع أن أقدّم إجابة قاطعة على هذا السّؤال، ولكنّني سأحاول طرح بعض الاحتمالات الممكنة والمنطقية التي قد تساعد على معرفة الحقيقة، أو على الأقلّ تستحثّ غيري ممّن له الرغبة مثلي في الوقوف على الجواب الصحيح يوما ما.ويمكنني أن أوجز هذه الاحتمالات في النقاط الآتية:

١) الأولى–وهي الأهمّ– أنّ الفاء الفصيحة لا تخرج عن هذه الأقسام الثّلاثة التي ذكرها المرادي وغيره، فإذا كانت هي الفاء العاطفة على الجواب المحذوف، كما عرّفها الزّركشي، أو هي العاطفة على مقدّر، كما عرّفها الأزهري، فهي في النّهاية عاطفة، والعطف هو القسم الأول من أقسامها وإذا كانت واقعة في جواب شرط مقدّر فهي جزائيّة، رابطة للجواب تعود إلى القسم الثاني من أقسامها. وأمّا القسم الثالث منها، وهو أن تكون زائدة، فقد توصّل أحد[١] الباحثين المعاصرين إلى أنّ كلّ مبتدأ حمل في معناه إشارة ولو بعيدة إلى الشرط جاز في خبره اقترانه بالفاء الزّائدة التي تسمّى الفاء الفصيحة، عنده، وجعل من ذلك الفاء التي في قوله تعالى:(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله)[٢]، وقوله: (والقواعد من النّساء

(١) هو الدكتور عبدالكريم الأسعد في كتابه الحاشية العصرية على شرح شذور الذهب: ٥٦٦/٢

(٢) سورة آل عمران، الآية١٦٦

اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهنّ جناح)[1]، وكذلك الفاء التي في نحو:"والله إذا درست فسوف تنجح" و"كلّ نعمة فمن الله"، و"ما لديك من نعمة فمن الله".

ولا أوافقه على رأيه هذا؛ لأنّه لم يقل بهذا أحد من قبلُ، ولا يعجبني قوله بزيادة الفاء في القرآن الكريم، ولا أرى في هذا الخلط بين أنواع الفاءات فائدة تذكر.

٢) أنّ أوّل من أطلق عليها هذا المصطلح –على حدّ علمي– هو جار الله الزّمخشريّ في تفسيره الكشاف، الذي لم يَرد فيه التصريح بها إلا مرّتين اثنتين.وهو نفسه لم يذكر هذا المصطلح في كتبه المختصّة بالنّحو كالمفصّل مثلا، فلا غرابة إذا تجاهلته الكتب التي ألفت بعده في معاني الحروف، ككتاب رصف المباني للمالقي، والجنى الدّاني للمراديّ، ومغني اللبيب لابن هشام الأنصاريّ.

بالإضافة إلى هذا فإنّ أباحيّان الأندلسي قد ضعّف تقدير الزمخشريّ في الموضع الذي ذكر فيه هذه الفاء، وتحامل عليه في أكثر من موضع من كتابه البحر المحيط؛ فاتّهم تقديره بالفساد، وعدم التناسب مع الآية تارة[2]، ووسمه بعدم فهمه للعربيّة أخرى[3]، وعدّ قوله من أقوال ضعاف النحويين حينا[4]، وعيّره بأنّه عجميّ ضعيف في النحو، لا يصحّ أن يردّ على عربيّ صريح محض حينا آخر[5].

وإذا كنت لا أوافق أباحيّان على تحامله هذا؛ لأنّ الزمخشريّ إمام من أئمّة النحو والعربيّة والتفسير، سواء اتّفقنا معه أم اختلفنا. فإنّني لا أستبعد أن يكون قد أثّر بكلامه في بعض من تتلمذ على يديه، أو أخذ عنه، كالمرادي، وابن هشام الأنصاريّ، على الرغم من أن هذا الأخير كان كثير المخالفة لشيخه أبي حيّان، شديد الانحراف عنه.

---

(١) سورة النّور، الآية ٦٠

(٢) البحر المحيط: ٢٢٨/١

(٣) نفسه: ١٤٨/٨

(٤) نفسه: ٢١٢/٨

(٥) نفسه ٢٣٠/٤

٣) كانت الإشارة الأولى إلى أهمّيّة هذه الفاء وحسن موضعها شعرا في قول الشّاعر:

قَالُوا: خُراسانُ أقصى ما يُرادُ بِنا.. ثُمّ القُفولُ فقد جِئنا خُراسانا

قد صدرت عن إمام البلاغة وشيخ البلاغيّين عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز كما مرّ معنا ولعلّ الزّمخشريّ قد أفاد من تلك الإشارة فأطلق على هذه الفاء مصطلح الفاء الفصيحة، فاقتنص هذا المصطلح الإمام السكّاكي عمدة البلاغيين المتأخّرين، ومنه شاع في كتب البلاغة، فصار معروفا على أرباب المعاني حتّى قيل: "هذه الفاء العاطفة على الجواب المحذوف يسمّيها أرباب المعاني الفاء الفصيحة[١]" فكأنّ هذه التسمية قد أصبحت خاصّة بهم، والمصطلح إذا استقرّ في علم ما، وشاع بين أهله وذويه ليس من السهل أن ينتقل إلى غيرهم.

شروط الفاء الفصيحة:

حاول الكفوي أن يضع لهذه الفاء الفصيحة شروطا وضوابط تعرف بها، بعد أن عرّفها بقوله:"هي التي يحذف فيها المعطوف عليه، مع كونه سببا للمعطوف من غير تقدير حرف الشّرط"فبدأ يخرج منها ما ليس منها، ويميّزها من غيرها، ويضع الفواصل، ويرسم الحدود لكلّ نوع من الفاءات؛ فقال:"ولا تسمّى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه، بل إن كان سببا للمعطوف تسمى فاء التسبيب، وإلاّ تسمى فاء التعقيب. وإن كان محذوفا ولم يكن سببا لا تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى تفريعية والأصح أن لا فرق بين الفصيحة والتفريعية. ثم التفريع قد يكون تفريع السبب على المسبب وتفريع اللازم على الملزوم أيضا. وإن كان المعطوف شرطا لا تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى جزائية سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف" فقد جعل شرطها الأول حذف المعطوف عليه، وشرطها الثاني أن يكون هذا المعطوف عليه المحذوف سببا للمعطوف المذكور، ولا بدّ أن يتحقّق

(١) الكشكول محمد بهاء الدين العاملي. – بيروت : دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م – الطبعة الأولى: ٣٢٠

الشرطان معا، فإن لم يحذف المعطوف عليه، فالفاء ليست فصيحة، ولو كان سببا للمعطوف، وإنّما تكون في هذه الحالة سببيّة، لذلك قال: "بل إن كان سببا للمعطوف تسمى فاء التسبيب" لأنّ المعطوف عليه مذكور، وهو سبب للمعطوف؛ "وإلا تسمى فاء التعقيب" أي إن كان المعطوف عليه مذكورا، ولم يكن سببا للمعطوف، بل كان متّصلا به، بلا مهلة، فالفاء حينئذ فاء التّعقيب. وأمّا إن كان المعطوف عليه محذوفا، لكنّه ليس سببا للمعطوف، فالفاء عنده تفريعيّة؛ لذلك قال: { وإن كان محذوفا ولم يكن سببا لا تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى تفريعية }

ثمّ استدرك، فسوّى بين الفصيحة والتفريعيّة فقال: "والأصح أن لا فرق بين الفصيحة والتفريعية".

ثمّ قسّم التفريعيّة إلى قسمين:

١-تفريع السبب على المسبّب.

٢-وتفريع اللازم على الملزوم.

حيث قال: "ثمّ التفريع قد يكون تفريع السبب على المسبب، وتفريع اللازم على الملزوم أيضا"، ثمّ انتهى إلى الشّرط الثّالث، وهو أن لا تكون الجملة شرطية، وقد ناقشنا هذا الشّرط من قبل عند تعريفها. وهذا الشّرط هو القيد الأخير الذي ذكره في تعريفها، لمّا قال:"من غير تقدير حرف الشّرط"لأنّه يرى أنّ الفاء في جملة الشّرط ليست فصيحة، ولو كان المعطوف عليه محذوفا، وإنّما هي فاء الجزاء وهذا ما أوضحه بقوله: "وإن كان المعطوف شرطا لا تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى جزائية، سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف".

وما ذهب إليه من أنّ الفاء الفصيحة هي الفاء التفريعيّة، قد تابعه عليه الشيخ عضيمة، فقال: "والصّحيح أنّه لا فرق بين فاء الفصيحة والفاء التفريعيّة[١]"

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم :٢٨٤\٢

لكنّ ابن كمال باشا فرّق بينهما، فجعل الفاء التفريعيّة هي الفاء السببيّة التي يكون ما بعدها سببا لما قبلها، وأمّا الفاء الفصيحة فقد اشترط لها أن يكون ما قبل الفاء شرطا مقدّرا، وليس مذكورا؛ فقال: "والفاء السببيّة هي الفاء الدّالّة على سببيّة ما قبلها لما بعدها وتلك الفاء لا تدخل إلاّ على الجزاء المسبوق بالشّرط مذكورا أو مقدّرا وتطلق فاء السّببيّة على فاء يكون ما بعدها سببا لما قبلها، وقد تسمّى الفاء فاء التفريع، وإذا كان ما قبل الفاء شرطا مقدّرا لما بعدها المذكور تسمّى فاء الفصيحة[١] "فهو يرى أنّ الفاء التّفريعيّة أعمّ وأشمل من الفاء الفصيحة، وإن كانت كلتاهما تطلق على الفاء السّببيّة عنده.

وهناك فاءات كثيرة في القرآن الكريم قال عنها المفسّرون إنّها محتملة أن تكون تفريعيّة على تأويل، وفصيحة على تأويل آخر، وهو ما يؤكّد الفرق الذي بينهما ومثال ذلك الفاء التي في قوله تعالى: (بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)[٢].

حيث قال ابن عاشور: "والفاء لتفريع إعراضهم على الإتيان بالذكر إليهم، أي فتفرع على الإرسال إليهم بالذكر إعراضهم عنه. والمعنى: أرسلنا إليهم القرآن ليُذكّرهم.

وقيل: إضافة الذكر إلى ضمير"هم" معنوية، أي الذكر الذي سألوه حين كانوا يقولون(ولو أن عندنا ذكرا من الأولين لكناعباد الله المخلصين[٣] فيكون الذكر على هذا مصدرا بمعنى الفاعل أي ما يتذكرون به، والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة أي: فها قد أعطيناهم كتابا فأعرضوا عن ذكرهم الذي سألوه...[٤]".

---

(١) أسرار النّحو: ٢٨٨

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٧١

(٣) سورة الصّافات، الآية١٦٧، ١٦٨

(٤) التحرير والتنوير:١٨/٩٥

وقد أضاف العلاّمة ابن عاشور ضابطا آخر دقيقا؛ تعرف به الفاء الفصيحة؛ فقال: "وعندي أن الفاء لا تعد فاء فصيحة إلا إذا لم يستقم عطف ما بعدها على ما قبلها، فإذا استقام فهي الفاء العاطفة، والحذف إيجاز، وتقدير المحذوف لبيان المعنى[1] ".

حذف الفاء الفصيحة:

إذا كانت هذه الفاء هي التي تفصح عن المحذوف وتدلّ عليه، فهل يجوز حذفها؟ وما الدليل على حذفها؟ ومتى تحذف؟ وبتتبّعي لما قيل عن هذه الفاء الفصيحة تبيّن لي أنّ علماء العربيّة يقولون بجواز حذفها في موضعين اثنين:

أحدهما: حذف لا يقوم عليه دليل، وهو غير مقبول في نظر الكثيرين؛ لأنّ فيه تكلّفا.

وثانيهما: حذف لدليل، وهو مستساغ ومقبول إذا أمن اللبس[2] .

<u>الحذف بغير دليل:</u>

ذهب بعضهم[3] إلى أن الفاء في مثل قوله تعالى: (أن اضرب بعصاك البحرفانفلق[4]، هي الفاء التي تكون في المعطوف عليه، وهي هنا الفاء التي كانت في "ضرب" المقدّرة؛ لأنّ التقدير: فضرب فانفلق.

وأمّا المتّصلة بـ"انفلق" فمحذوفة، وهي المسمّاة بالفاء الفصيحة. فأبقي من كلّ ما يدل على المحذوف، أبقيت الفاء من (فضرب) واتصلت بـ(انفلق)، لتدلّ على (ضرب) المحذوفة، وأبقي (انفلق) ليدل على الفاء الفصيحة المحذوفة منه.

وقد نُسب هذا الرأي إلى ابن عصفور[1] والأبّذي فاستهجنه الآلوسي وتطاول على قائله– بعد أن نسبه إلى ابن عصفور– فقال: "وزعم ابن عصفور في مثل

---

(١) التحرير والتنوير:١/٥١٩

(٢) الكشكول: ٣٢٠

(٣) البرهان في علوم القرآن:٣/١٨٢

(٤) سورة الشعراء، الآية٦٣

هذا التركيب أن المحذوف هو: (ضرب)، وفاء (انفلق). والفاء الموجودة هي فاء (ضرب). وهذا أشبه شيء بلغي العصافير وكأنه كان سكران حين قاله[٢]".

وما في كتاب المقرّب لابن عصفور يدحض ما نسبوه إليه. وهذا نصّه: "وحُذف حرف العطف، والمعطوف عليه، فحذف "ضرب" والفاء الدّاخلة عليه[٣]".

وعلى أيّ حال فإنّ هذا الرأي فيه تكلّف وتخرّص على العرب بغير دليل؛ كما قال أبوحيّان ثمّ علّل ذلك بقوله: "لأنّه قد ثبت في لسان العرب حذف المعطوف عليه وفيه الفاء، حيث لا معطوف بالفاء موجود، كما في قوله تعالى: { فأرسلون يوسف أيّها الصّدّيق [٤]} والتقدير: فأرسلوه فقال: فحذف المعطوف عليه والمعطوف، وإذا جاز حذفهما معاً، فلأَنْ يجوز حذف كل منهما وحده أولى[٥] ". **الثاني: الحذف لدليل:**

ليس هذا الأمر مقصورا على حذف الفاء الفصيحة، ولا على معطوفها، وإنّما هو قاعدة كلّيّة في النّحو العربيّ يمكن أن تندرج هذه المسألة تحتها وقد سبق لابن مالك أن نظمها في ألفيّته، فقال:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ ... .

أي أنّ الحذف عامّةً في العربيّة يجوز إذا علم بالقرينة، ودلّ على ذلك دليل، كما في قوله تعالى: (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى[٦]، حيث قال السّكّاكي:"أليس يفيد: فضربوه فحيي فقلنا كذلك يحيي الله الموتى[٧]"؟.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن:١٨٢/٣والبحر المحيط والدرّ المصون٣٨٥/١

(٢) روح المعاني:٨٦/١٩

(٣) المقرّب:٢٥٨/١

(٤) سورة يوسف، الآية٤٥، ٤٦

(٥) البحر المحيط: ٢٢٨/١ وينظر البرهان في علوم القرآن: ١٨٢/٣

(٦) سورة البقرة، الآية٧٣

(٧) المفتاح: ١٣٤

قلت: بلى، يفيد ذلك؛ لأنّ هناك كلاما محذوفا يدلّ عليه سياق الكلام، ولولا حذفه للعلم به لورد به النّص؛ لأنّ ما بعد "كذلك" لا يصلح لأن يكون معطوفا على المذكور قبلها، لذلك يتعيّن تقدير معطوف آخر بينهما فيه الفاء الفصيحة.

قال أبوالسعود: " كذلك يحيى الله الموتى على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام، أي فضربوه فحيي وقلنا كذلك يحيى الخ، فحذفت الفاء الفصيحة في فحيي مع ما عطف بها وما عطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك[١]".

وهناك من ذهب إلى جواز حذفها مع بقاء الواو للدلالة عليها، وعلى المعطوف عليه المحذوف معها، واكتفى بذلك، دون أن يسمّي هذه الواو باسم جديد، غير أنّ هناك آخرين أطلقوا على هذه الواو الباقية بعد حذف الفاء الفصيحة اسم الواو الفصيحة، ولعلّ ذلك يعود إلى اشتراك الواو والفاء في بعض الخصائص، كدلالتهما على العطف، وجواز حذفهما مع معطوفهما لدليل، وجواز حذف المعطوف عليه بهما[٢] .

ومن هنا قال الزّمخشري في قوله تعالى" وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِين[٣]: "فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة { وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا }.

فقال الآلوسي معقبا على قوله بأنّ هناك من ذهب إلى تسمية هذه الواو بالفصيحة[٤] .

---

(١) تفسير أبي السعود:١/١١٤

(٢) شرح التصريح على التوضيح:٢/١٨٦ ومابعدها

(٣) سورة النّمل، الآية١٥

(٤) ينظر روح المعاني:١٩/١٧٠

وفي قوله تعالى:(وآتت كل واحدة منهن سكينا)[١].

قال الآلوسي: "وفي الآية على سائر القراءات حذف أي فجئن وجلسن وآتت كل واحدة منهن سكينا[٢]" وهو يعني حذف الفاء الفصيحة في: فجئن وما عطف بها وما عطف هو عليه، لدلالة الواو على ذلك.

ثمّ أورد لبعض المحقّقين رأيا لم يستبعد فيه تسمية هذه الواو التي دلّت على هذا المحذوف المقدّر بالواو الفصيحة، فقال:" قال بعض المحققين: لا يبعد أن تسمى هذه الواو فصيحة[٣]".

وفي قوله تعالى:(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)[٤]

قال الآلوسي: "وفي الكلام إيجاز الحذف بحذف الفاء الفصيحة والمعطوف عليه، أي استفتحوا ففتح لهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد[٥]".

وفي قوله تعالى:(ويقولُ الكافرُ يا ليْتني كنتُ ترابــاً[٦] قال أبوالبقاء الكفوي: "والواو في قوله تعالى { ويقولُ الكافرُ يا ليْتني كنتُ تراباً } تسمى فصيحة[٧]".

لأن التقدير، والله أعلم:يوم ينظر المرء ماقدّمت يداه فيسرّ المؤمن، ويحزن الكافر ويقول:يا ليتني كنت ترابا.

---

(١) سورة يوسف، الآية٣١

(٢) روح المعاني:٢٢٨/١٢

(٣) نفسه

(٤) سورة إبراهيم، الآية١٤

(٥) روح المعاني:٢٠١/١٣

(٦) سورة النّبأ، الآية٤٠

(٧) الكلّيات: ٦٧٦

نتائج البحث:

بعد هذا التّطواف مع الفاء الفصيحة، خرج البحث بالنّتائج الآتية:

١-الفاء الفصيحة لها تعريفات كثيرة، والتعريف الأولى بالتّرجيح عندي هي تلك التي تفصح عن مقدر مطلقا، سواء أكان معطوفا عليه، أم شرطا.

٢-سمّيت هذه الفاء فصيحة؛ لإفصاحها عن محذوف مقدّر، أو لفصاحة الكلام الذي دخلت هي فيه، أو لظهور المعنى بسبب دخولها، أو لأنّها تدلّ على فصاحة المتكلّم بها فوصفت بالفصاحة على الإسناد المجازي، أو لكونها مفيدة معنى بديعا، أو واقعة موقعا حسنا، أو لأنّها لا تدلّ على المحذوف قبلها إلاّ عند الفصيح، أو لأنّها لا ترد إلاّ من الفصيح لعدم معرفة غيره بمواردها.

٣-أوّل من استخدم مصطلح الفاء الفصيحة-على حدّ علمي-هو جار الله الزّمخشريّ، ومنه انتقل إلى كتب التّفسير، وكتب البلاغة، وكتب النحو.

٤-لم يقف البحث على هذا المصطلح في كتب حروف المعاني ألبتّة، وقد حاول أن يقدّم تفسيرا لهذه الظاهرة.

٥-تتبّع البحث تاريخ هذا المصطلح وشيوعه بين أرباب المعاني والمفسّرين، والنّحاة، فظهر أنّه لم يُستخدم عند النّحاة إلاّ في العصور المتأخّرة.

٦-أثبت البحث أنّ الفاء الفصيحة ليست قسما من أقسام الفاء، وإنّما هي نفسها الفاء العاطفة، أو الفاء الواقعة في جواب الشّرط، اللّتين يذكرهما النّحاة، وما مصطلح "الفصيحة" إلاّ معنى من معانيها، فكما ترد الفاء العاطفة للتعقيب، أو للتّرتيب، أو للسّببيّة، ترد أيضا للفصيحة.

٧-توصّل البحث إلى أهمّ شروط الفاء الفصيحة، وضوابطها التي ذكرها العلماء، وهي:

١- حذف ما قبل الفاء الفصيحة.

٢- أن يكون المحذوف سببا للمذكور.

٣- أن لا تكون الجملة المحذوفة شرطية، عند بعضهم ولم يعتدّ الباحث بهذا الشّرط، ورأى أنّ المحذوف قد يكون معطوفاً عليه، فتكون الفاء عاطفة، وقد يكون المحذوف فعل الشّرط وأداته، فتكون الفاء رابطة للجواب والفاء على الوجهين تسمّى فصيحة.

٤- أن لا يستقيم عطف ما بعدها على ما قبلها، فإذا استقام فهي الفاء العاطفة، والحذف إيجاز، وتقدير المحذوف لبيان المعنى .

٨- تحدّث البحث عن حذف الفاء الفصيحة أحيانا لقرينة أو دليل، وأنكر القول بحذفها لغير دليل، وفنّد ما نسب إلى ابن عصفور من ذلك .

The Standard Faa Its semantic, Usages, Etymology, and Rules

Asst. Prof. D.r.Abdulaziz S.Al- Jeel

Abstract

The current paper deals with the standard letter (Faa) . It is mentions in interpretation books, explanations of prophetic traditions, rhetoric and syntactic books. What has been mentioned here there seartered in there books is not enough as am attar for systemic study.

This study tines to collect these information in a scientific way .